المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

الرحمة
وعلاقتها بزيادة الإيمان ونقصانه
من خلال
السنة النبوية الصحيحة

إعداد:
محمد أنور عزالدين علي الشيباني

٩٣

مقدمة

الحمد لله على جميل فضله، والشكر له على كريم عدله، والفضل له وحده لتوفيق المؤمنين لمعرفته والإيمان به، رحمة منه سابغة عليهم، وكمالًا لغناه عنهم، يرحمهم وهو مستغن عنهم، فله وحده المن والفضل، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، أكمل الخَلْق رحمة، أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكان بأبي هو وأمي ونفسي رحمة للعالمين، وبعد:

اقتضت حكمة الله ﷻ أن يمتحن عباده برسالاته، وهذا من كمال رحمته بهم، فلا يعرض أحد لثواب ولا عقاب، إلا بعد أن يمتحنه، فإما أن يستجيب فينجو، وإما أن يعرض فيهلك؛ ولهذا كانت رسالة الإسلام وبعثة النبي العدنان ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فالإسلام دين عقيدة ورسالة وسلوك، وأركان الإسلام مبنية على هذه العناصر الثلاثة، ورسالة الله لعباده لرحمتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فصاروا بفضله ورحمته موحدين، بعد أن كانوا مشركين، وصاروا بفضله ورحمته طائعين بعد أن كانوا عاصين، وصاروا بفضله ورحمته مصلحين بعد أن كانوا مفسدين.

وعند التأمل فإن الرحمة معنى لطيف في الإنسان، جانب منه يفطر

عليه طبيعة، وجانب آخر يكتسب بتهذيب الديانة، ومن لطائف مسائل الباب، أن هناك علاقة بين اتساع القلب لهذا المعنى الجليل، وبين استجابته لأوامر التنزيل، وليس هذا من جانب الصُّدف، ولا تكلف في العلم من غير هدف، بل هو التأمل للنصوص، والغوص في معانيها، وتلمس مقاصدها، ولا شك أن هذا يتمثل حقيقة في شخص بشري، وهو جناب الرسول النبي ﷺ، وسنته ﷺ غاية في تمثل الرحمة بالخَلْق، وهو أكمل وصف للمؤمنين، تجسّد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، وكمل إيمانه بقوله ﷺ: «أَمَا والله، إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ للَّه، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ»(١)، وقوله: «قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لله، وَأَصْدَقُكُمْ، وَأَبَرُّكُمْ»(٢)، فكان شرعًا للحكيم الخبير، لأن يرحم من يرحم، فرأيت أن هناك علاقة بين رحمة المرء وإيمانه، بل إن الأمر يتوقف عليه الإيمان زيادة ونقصًا، واقتصرت على دراسة المسألة من السنة النبوية الشريفة، سائلًا المولى جل في علاه التوفيق والسداد، وهو وحده ولي ذلك والقادر عليه.

وسنة النبي ﷺ القولية منها والفعلية تفيض بالشواهد على هذا، بل إن أصل الرسالة المحمدية هو رحمة من الله لعباده، فكانت أصلًا لكل خير جاء به عبد، يرحم نفسه فينجو، ويرحم غيره فينجو ويُنجي، ولعل من أبرز من وقفت عليه جمع مادة الموضوع شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي (ت ٩٥٣هـ)، في كتابه: الأربعين في فضل الرحمة والراحمين.

ولعله من المناسب تفصيل المسألة؛ لأنها متشعبة بين مسائل الاعتقاد

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، في كتاب الصيام، باب بيان أن القُبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته، برقم (١١٠٨) (٧٧٩/٢)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب نهي النبي ﷺ على التحريم إلا ما تعرف إباحته، وكذلك أمره، برقم (٧٣٦٧) (١١٢/٩)، ومسلم في الصحيح، في كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، برقم (١٢١٦) (٨٨٣/٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

والسنة النبوية، وهي مسألة دقيقة، يتحرى الباحث من خلال الخوض فيها الوقوف على دقيقة، طالما دارت في نفسه، فتناغم ما كان في نفسي مع بعض محاور المؤتمر الأول عن الرحمة، الذي تنظمه مشكورة مأجورة جامعة الملك سعود رحمه الله، وهو المحور الأول: تأصيل خلق الرحمة في الإسلام، في بندها الثاني وهو: (الرحمة في السنة النبوية)، أهدف من خلالها إلى تسليط الضوء على عظيم مكانة الرحمة، وعلاقتها بزيادة الإيمان ونقصانه، انتهجت فيها المنهج التحليلي، وهذا شرف عظيم لمثلي على قلة بضاعته، أن يسهم بإثراء فكرة المؤتمر وموضوعه، عسى الله تعالى أن يعفو عني ويرحمني، فذلك رجائي ومأمولي، فبدا لي جمع هذا الجمان، ونظم هذا الزَّبَرْجَد في عقد فريد، وخطة ثنائية، على النحو الآتي:

المبحث الأول: منزلة الرحمة وأثرها على العقيدة من خلال السنة النبوية الصحيحة:

المطلب الأول: رسالة الدين للبشرية رسالة رحمة.

المطلب الثاني: إضاءات نبوية على عقيدة المؤمن وتأثرها بالرحمة.

المبحث الثاني: آثار الرحمة في زيادة الإيمان ونقصانه وتطبيقاتها من الآثار الصحيحة:

المطلب الأول: الإشارات النبوية لزيادة الإيمان ونقصانه، وعلاقته بالرحمة.

المطلب الثاني: دراسة تحليلة تطبيقية لحديث النبي ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً».

الخاتمة: وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول
منزلة الرحمة وأثرها على العقيدة من خلال السنة النبوية الصحيحة

كتب الله ﷻ على نفسه الرحمة، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ [الأنعام:١٢]، فرحمته شملت الموجودات كلها، وبها قامت السموات والأرض ومن فيهن، فقد وسعت كل شيء، والرب وسع كل شيء رحمة وعلمًا، فوصلت رحمته إلى حيث وصل علمه، فليس موجود سوى الله ﷻ إلا وقد وسعته رحمته وشملته، وناله منها حظ ونصيب، ولكن المؤمنون اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها تكميل الرحمة ودوامها، والكفار اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها صرف الرحمة إلى غيرهم[1].

المطلب الأول
رسالة الدين للبشرية رسالة رحمة

لا شك أن أعظم رحمة رحم الله ﷻ عباده هي رسالة آخر الأنبياء، وأعظم البشر، سيدنا ونبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فأصل الرسالة رحمة العالمين، وكل فروعها

(١) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ص (٢٦٠).

وتشريعاتها منبثقة عن هذا الأصل العظيم، فليس من الغرابة أن تكون هذه الرحمة سببًا لدخول جنة الله تعالى، وكسب رضاه.

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»(١). وفي غير الصحيح، قال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»(٢).

وهذا غاية في الظهور؛ إذ المقام مقام انتقام وتشفي، فهؤلاء المشركون آذوه في نفسه وأصحابه، ولكنه ﷺ رحمة مهداة للعالمين، فلا يصدر عنه إلا ما يوافق ذلك، فرسالته ﷺ أعظم رحمة؛ إذ لا يتصور خير إلا بها، والخير كل الخير في اتباعها، فاللهم لك الحمد على نعمة الإسلام، والله نسأل أن يثبتنا على دينه حتى نلقاه.

ومن لطيف ما وقفت عليه شاهدًا على ذلك من حديث جابر ﷺ، قال: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: «أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟»، قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا، قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟»(٣). (يقدس الله) أي: يطهرهم من الدنس

(١) كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم (٢٥٩٩) (٤/٢٠٠٦).
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٤٨) (١٣/٤٠٨)، والحاكم في المستدرك، برقم (١٠٠) (١/٩١)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرطهما، فقد احتجا جميعًا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول"، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني. السلسلة الصحيحة (١/٨٨٢).
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، =

والآثام[1]. ويالله ما أعجب هذا؛ فقد جاءت السنة مصدّقة لهذه العجوز الحبشية، وهي لم تر النبي ﷺ ولم يرها، إلا أن شاهدنا في أن رسالة النبي ﷺ جاءت بالناموس الإلهي، الذي يرحم الضعيف، ويأخذ له من القوي حتى يرضى، وأن ذلك حقيق بأن يرضي الجبار في علاه، وإذا تسلط القوي على الضعيف، وانعدمت الرحمة في القلوب، ولم ينتصف لأصحاب الحقوق حل بالأمة السخط، فكيف يقدسها الله ﷻ، وقد ضيعت حقوق ضعيفها، وانعدمت الرحمة بينها.

المطلب الثاني
إضاءات نبوية على عقيدة المؤمن وتأثرها بالرحمة

عندما تأملت في سنة النبي ﷺ وجدتها مليئة بشواهد رحمته بأمته، وعظمة شفقته بالعالمين، تحقق فيه وصف ربه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، ولكن منهجية البحث تقتضي التركيز على جزئيته، وإبراز مسألته، وهي علاقة الرحمة بالعقيدة.

شعب الإيمان وعلاقتها بالرحمة:

الحديث عن الإيمان مرتبط أصالة بالوحيين، ودرجته في القلب الذي هو محله لا يعلمها إلا الله ﷻ، وقد جاءت السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بما يدل على سمو أصحاب القلوب الرحيمة،

= برقم (٤٠١٠) (٢/١٣٢٩)، وابن حبان في الصحيح، كتاب القضاء، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من معونة الضعفاء وأخذ مالهم من الأقوياء، برقم (٥٠٥٨) (١١/٤٤٣). قال الألباني: "صحيح لغيره". التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧/ ٣٤٢).

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/ ٤٨٦).

وعلو منزلتهم، وهي رفعة حسية ومعنوية في حين، ولكي يظهر لنا هذا المعنى ابتداءً ننظر في كلام المعصوم، حيث قسَّم الإيمان إلى شعب، وذكر لنا طائفة منها في حديث أبي هريرة المتفق عليه.

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[1]. (شعبة) خصلة، والشعبة واحدة الشعب، وهي أغصان الشجرة، وهو تشبيه للإيمان وخصاله بشجرة ذات أغصان، لا تتكامل ثمرتها إلا بتوفر كامل أغصانها. و(الحياء) صفة في النفس تحمل على فعل ما يحمد، وترك ما يذم عليه ويعاب[2].

يقول ابن رجب: "فأشار إلى أن خصال الإيمان منها قول باللسان، ومنها ما هو عمل بالجوارح، ومنها ما هو قائم بالقلب، ولم يزد في شيء من هذه الروايات على هذه الخصال". وقال -أيضًا-: "أهل الحديث والسنة عندهم أن كل طاعة فهي داخلة في الإيمان، سواء كانت من أعمال الجوارح أو القلوب أو من الأقوال، وسواء في ذلك الفرائض والنوافل، هذا قول الجمهور الأعظم منهم"[3].

وقال ابن حجر: "قوله شعبة بالضم أي قطعة، والمراد الخصلة أو الجزء، قوله: والحياء. هو بالمد، وهو في اللغة: تغير وانكسار، يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب، والترك إنما هو من لوازمه، وفي الشرع خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق؛ ولهذا جاء في الحديث الآخر: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»[4]، فإن

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (٩) (١/ ١١)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٥٨) (١/ ٦٣).
(٢) ينظر: تعليق مصطفى البغا على البخاري، (١/ ١١).
(٣) فتح الباري (١/ ٣٣، ٣٤).
(٤) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٦٠) (١/ ٦٤). =

قيل: الحياء من الغرائز، فكيف جعل شعبة من الإيمان؟ أجيب بأنه قد يكون غريزة، وقد يكون تخلقًا، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان لهذا، ولكونه باعثًا على فعل الطاعة وحاجزًا عن فعل المعصية، ولا يقال رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير؛ لأن ذاك ليس شرعيًّا، فإن قيل: لم أفرده بالذكر هنا؟ أجيب بأنه كالداعي إلى باقي الشعب، إذ المحيي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر وينزجر، والله الموفق"[1]. ويا له من كلام موفق، تأملته مرارًا، واعتنيت به تكرارًا، فبلغت منه إلى مأربي، فلا مزيد عليه. وقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن ابن حبان اجتهد في عدّ هذه الشعب وقسمها إلى ثلاثة أقسام، وعد من أعمال القلب أربعًا وعشرين خصلة، وجعل الرحمة منها، ومن أعمال اللسان سبع خصال، ومن أعمال البدن ثمان وثلاثين خصلة. وعلى هذا فإن أعمال القلب وحده تتصدر بقية الشعب عظمة وعدًّا، التي منها الرحمة.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحًا ما قاله الشيخ ابن سعدي: "وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته، وهو قول لا إله إلا الله اعتقادًا، وتألهًا، وإخلاصًا لله، وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي عن الطريق، فكيف بما فوق ذلك من الإحسان. وذكر الحياء -والله أعلم- لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح، كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب -المذكورة في هذا الحديث- هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وهذا -أيضًا- صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم أن الناس

= وعنده -أيضًا- بلفظ: " الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ " . وعندهما - الشيخان - بلفظ: » الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ». البخاري، كتاي الأدب، باب الحياء، برقم (٦١١٧)(٢٩/٨). عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) فتح الباري (١/ ٥٢).

يتفاوتون فيها تفاوتا كثيرًا. فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى"[1].

والذي خلصت إليه بعد تأمل: أن خصال الإيمان وشعبه، كثير منها ينبع من الرحمة، إما بالنفس، وإما بالخلق، وأعني بالخلق كل ما عدا النفس من خلق الله ﷻ، فالكون والأرض والسماء والنبات والدواب والجن والإنس، كلهم يدخل في هذا، فمن يتصور إزالة شوكة من طريق الناس، إلا وهو يرحم من يتأذى بوخزها، ومن يتصور رفع غصن اعترض ممشى البشر والدواب، إلا وهو يرحم الخلق من تعثرهم به، ومن يتصور إطعام قطة، إلا وهو يرحمها من جوعة تؤذيها، وقد تميتها، وشعبة الحياء كذلك، فهي تستجمع خصال الرحمة والشفقة بالخلق، فتتولد هذه الصفة، بل وينتج عنها كل ما هو خير.

فإذا كانت الشعب تتفاوت في درجاتها، فإن تحصيل الشعبة الواحدة كذلك تتفاوت في درجاتها، فأهل الإيمان يتفقون أن من كمل إيمانه كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، هو أفضل من أدى حق لا إله إلا الله، وهي أفضل شعب الإيمان، فكان لازمًا القول: إن أبا بكر الصديق هو أفضل الأمة؛ لأنه أفضل من حقق التوحيد، وهكذا بقية الخصال، فمن حقق خصلة الرحمة، وبلغ الغاية في تحصيل معناها الشرعي، فإنه بلا شك يكون أفضل ممن هو دونه في تحصيل ذلك، وهذا ما سيظهر تباعًا في تتبع الأدلة الشرعية، من السنة المرضية، والفضائل السنية، والطرائق السلفية.

ومن أعظم شواهد ذلك: أن المرء يرحم رَحِمَه، وذويه، ويرحم العامة، فيكون ذلك سببًا في دخوله الجنة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا تَحَابُّوا عَلَيْهِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ تَحَابُّوا، وَالَّذِي نَفْسِي

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص (٥٨).

بيَده لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحَمُوا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ، رَحْمَةُ الْعَامَّةِ»[1]. وفي رواية عند البيهقي: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْكُمْ إِلَّا رَحِيمٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «لَيْسَ رَحْمَةُ أَحَدِكُمْ نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، حَتَّى يَرْحَمَ النَّاسَ»[2].

فرحمة العامة سبب لدخول الجنة، وليت شعري إنها مسألة غائبة عن الكثيرين، وتلك الرحمة تنبع من محلها وهو القلب، وهو محل الإيمان، فإن امتلأ الوعاء رحمة، نبع بالإيمان، فأثر في كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، ولعمري كم من عبادة صبغها صاحبها بغلظة كدرت صفوها، ولعلها أذهبت أجرها كاملاً، أما رأيت أن النبي ﷺ رأى عمر رضي الله عنه يطوف البيت، فقال له: «يَا عُمَرُ إِنَّكَ رَجُلٌ قَوِيٌّ، لَا تُزَاحِمْ عَلَى الْحَجَرِ، فَتُؤْذِيَ الضَّعِيفَ، إِنْ وَجَدْتَ خَلْوَةً فَاسْتَلِمْهُ، وَإِلَّا فَاسْتَقْبِلْهُ فَهَلِّلْ وَكَبِّرْ»[3]. وقال في الصلاة: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ»، قال أبو داود: "معنى: ولينوا بأيدي إخوانكم: إذا جاء رجل إلى الصف فذهب يدخل فيه، فينبغي أن يلين له كل رجل منكبيه، حتى يدخل في الصف"[4].

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، في كتاب القضاء، باب حكم الحاكم في داره، برقم (٥٩٢٨) (٥/٤١٤)، والحاكم في المستدرك، في كتاب البر والصلة، برقم (٧٣١٠) (٤/١٨٥). وقال: » صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذهبي: » صحيح « . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: » رجاله رجال الصحيح « . (٨/١٨٧). قال في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥/ ٥١٦): «رواه النسائي في الكبرى من طريق الليث بن سعد، عن ابن الهاد به. وله شاهد من حديث ابن عمر، رواه البزار في مسنده، وأصله في صحيح مسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة». وهو الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». صحيح مسلم رقم (٥٤) (١/٧٤).
ورواه أبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنَا يَرْحَمُ. قَالَ: «لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، يَرْحَمُ النَّاسَ كَافَّةً». المسند برقم (٤٢٥٨) (٧/٢٥٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رجاله وثقوا، إلا أن ابن إسحاق مدلس" . (٨/١٨٧).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٤٨) (١٣/٤٠٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (١٩٠) (١/٣٢١)، وعبدالرزاق في مصنفه، برقم (٨٩١٠) (٥/٣٦)، والبيهقي في الكبرى، برقم (٩٢٦١) (٥/١٣٠). وقال الزرقاني: «مرسل جيد الإسناد». شرح الزرقاني على الموطأ (٢/٤٥٦). وقال الألباني: «صححه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي». مناسك الحج والعمرة، ص (٢١).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، برقم (٦٦٦)(١/١٧٨)، وأحمد في المسند برقم (٥٧٢٤) (١٠/١٧). قال الألباني: «إسناده صحيح». صحيح سنن أبي داود (٣/٢٤٣).

وهكذا حال من يرحم الصغير فيدنيه ويقبله، أو يُرَبِّتُ عليه ويكرمه، أو يلعب معه ويرفعه، وهذه أحوال تدل على صفاء قلوب أصحابها ونقاوتها، فاستحقت رحمة ربها ومولاها. ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»[1]. وعندهما -أيضًا- في رواية عن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»، وعندهما -أيضًا- في رواية عن جرير بن عبدالله ﷺ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ».

ومثله ما رواه عبدالله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ، قَالَ: «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[2]. قال في عون المعبود: "(ويعرف) بالجزم (حق كبيرنا) أي بما يستحقه من التعظيم والتبجيل (فليس منا) أي من أهل سنتنا وقيل: أي من خواصنا، وهو كناية عن التبرئة"[3].

وعنه -أيضًا- قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ»[4]. قال في تحفة الأحوذي: «قوله:

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم (٥٩٩٧) (٧/٨)، ومسلم في الصحيح كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، برقم (٦٥) (١٨٠٧/٤).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (٤٩٤٣) (٢٨٦/٤)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩١٩) (٣٢١/٤)، وقال: «حسن صحيح». وأحمد في المسند برقم (٦٧٣٣) (٣٤٥/١١). عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﷺ.

(٣) عون المعبود (١٩٦/١٣).

(٤) أخرجه أبو داوود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (٤٩٤١) (٢٨٥/٤)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩٢٤) (٣٢٣/٤)، واللفظ له، وقال: » حسن صحيح «، وأحمد في المسند برقم (٦٤٩٤) (٣٣/١١).

(الراحمون) لمن في الأرض من آدمي وحيوان محترم، بنحو شفقة وإحسان ومواساة، (يرحمهم الرحمن) أي يحسن إليهم، ويتفضل عليهم، والرحمة مقيدة باتباع الكتاب والسنة[1]، فإقامة الحدود والانتقام لحرمة الله، لا ينافي كل منهما الرحمة، «ارحموا من في الأرض» قال الطيبي: أتى بصيغة العموم، ليشمل جميع أصناف الخلق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والبهم، والوحوش والطير، انتهى. وفيه إشارة إلى أن إيراد (مَنْ) لتغليب ذوي العقول، لشرفهم على غيرهم، أو للمشاكلة المقابلة بقوله «يرحمكم من في السماء»، وهو مجزوم على جواب الأمر، أي الله ﷻ. وقيل: المراد من سكن فيها وهم الملائكة، فإنهم يستغفرون للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:٧]. وقد روي بلفظ: «ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ»[2]، والمراد بأهل السماء الملائكة، ومعنى رحمتهم لأهل الأرض دعاؤهم لهم بالرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: (ويستغفرون لمن آمن، (الرحم شجنة) بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة، وأصل الشجنة: عروق الشجر المشتبكة، والشجن بالتحريك واحد الشجون، وهي الأودية، ومنه قولهم: الحديث ذو شجون، أي يدخل بعضه في بعض، (من الرحمن) أي أخذ اسمها من هذا الاسم، كما في حديث عبدالرحمن بن عوف في السنن مرفوعًا: «أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي»[3]، والمعنى أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها، فالقاطع لها منقطع من رحمة الله ﷻ. وقال الإسماعيلي: "معنى الحديث:

(١) هذا قيد عزيز، تنضبط به كل أعمال الشرع، وخلق الرحمة منها، فليتنبه فإنه غاية في الأهمية.
(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٦٤٩٤) (٣٣/١١)، والحاكم في المستدرك، برقم (٧٢٧٤) (١٧٥/٤)، وقال: «وهذه الأحاديث كلها صحيحة، وإنما استقصيت في أسانيدها بذكر الصحابة ﷺ، لئلا يتوهم متوهم أن الشيخين ﷺ لم يهملا الأحاديث الصحيحة»، ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه الترمذي في السنن، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، برقم (١٩٠٧) (٣٧٩/٣).

أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقة، وليس معناه: أنها من ذات الله تعالى الله عن ذلك، ذكره الحافظ في الفتح"[1].

تدمع العين، ويفيض الفؤاد رقة ورحمة، لموت حبيب، أو نصرة مؤمن، أو وجل من مكروه قد يقع عليه، فتغسل هذه الدموع القلب بماء الرحمة، وتذيب أدرانه بغسول الرأفة. ففي حديث أسامة بن زيد ﷺ قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَدُفِعَ إِلَيْهِ صَبِيٌّ لِإِحْدَى بَنَاتِهِ، وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ، كَأَنَّهَا فِي شَنٍّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[2].

يرحم المؤمن أخاه، ويعطف عليه، ويتودد له، فيكتمل بهذا بناء الإيمان، ويقوى جدار الإسلام، ويظهر رحمته لأخيه عناية بأموره، واهتمامًا بشؤونه، بل يظهر عليه العي والتعب لضعفه ومرضه، عن النُّعمان بن بشير ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[3]. قال النووي: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم إلى آخره، هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه»[4].

ويالله كم هي شقاوة من نزعت الرحمة من قلبه، يشقى في الدنيا فتلازمه القسوة والجفاء، وفي الآخرة فيُسلب رحمة الرحمن الرحيم،

(١) (٦/٤٣).
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم (٢٥٨٦)(٤/١٩٩٩).
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، برقم (٧٣٧٧)(٩/١١٥)، ومسلم في الصحيح كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، برقم (٩٣٢)(٢/٦٣٥).
(٤) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٩).

عن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الصَّادِقَ، الْمَصْدُوقَ ﷺ صَاحِبَ هَذِهِ الْحُجْرَةِ يَقُولُ: «لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»(١). قال في عون المعبود: "(لا تنزع) بصيغة المجهول، أي لا تسلب الشفقة على خلق الله، ومنهم نفسه التي هي أولى بالشفقة والمرحمة عليها من غيرها، بل فائدة شفقته على غيره راجعة إليها: لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، (إلا من شقي) أي كافر أو فاجر، يتعب في الدنيا، ويعاقب في العقبى"(٢).

وقال في تحفة الأحوذي: "(إلا من شقي) قال الطيبي: لأن الرحمة في الخلق رقة القلب، والرقة في القلب علامة الإيمان، فمن لا رقة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقي، فمن لا يرزق الرقة شقي. انتهى"(٣).

قال بعض أهل العلم: "أمة محمد ﷺ هم أرحم الأمم في الدنيا، ولهذا سمي نبي الرحمة، فمن نزعت الرحمة من قلبه خشي عليه أن لا يكون من أمته ﷺ"(٤). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة"(٥).

فرحمة الخلق تستجلب بها رحمة رب الخلق، ورحمة العباد يستدل بها لرحمة رب العباد. عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرِ اللهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(٦).

(١) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (٤٩٤٢)(٤/٢٨٦)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (١٩٢٣)(٤/٣٢٣)، وقال: «هذا حديث حسن». وأحمد في المسند برقم(٨٠٠١)(١٣/٣٧٨).
(٢) (١٣/١٩٦).
(٣) (٦/٤٢).
(٤) الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، لابن طولون الصالحي، ص (٣٠).
(٥) التدمرية، ص (٣٤).
(٦) أخرجه أحمد في المسند، برقم (٦٥٤١)(١١/٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد، برقم (٣٨٠)، ص (١٥١)، وصححه الألباني.

والرحمة -كذلك- سبب عظيم لمغفرة الذنوب الكبائر، فضلًا عن الصغائر، بل رحمتك لمخلوقات الله كلها يكفر من السيئات، ويحط الخطيئات، حتى الحيوان والشجر. أخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا». وفي لفظ عنه عند مسلم -أيضًا-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[1].

ومثله في المعنى عن أبي هريرة رضي الله عنه -أيضًا-: أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْر»[2].

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: "في الحديث الحثّ على الإحسان إلى الناس؛ لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقي المسلم أعظم أجرًا. واستدل به على جواز صدقة التطوع للمشركين، وينبغي أن يكون محله إذا لم يوجد هناك مسلم، فالمسلم أحق، وكذا إذا دار الأمر بين البهيمة والآدمي المحترم، واستويا في الحاجة، فالآدمي أحق"[3].

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (٢٢٤٥)، (١٧٦١/٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، برقم (٢٣٦٣) (١١١/٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (٢٢٤٤)، (١٧٦١/٤).

(٣) أصول الإيمان، ص (٥٠).

والعكس بالعكس، فمن شقاوة عبد أن يقسو على حيوان، فيجيعه حتى يموت، أو يسيء له بما لا يؤلف غالبًا لمثله، وفي هذا المعنى حديث عظيم عن أسماء بنت أبي بكر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى صَلاَةَ الكُسُوفِ، فَقَالَ: «دَنَتْ مِنِّي النَّارُ، حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَإِذَا امْرَأَةٌ، حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا». وفي رواية عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ»، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ: «لاَ أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلاَ سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلاَ أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»، قال الزهري: "ذلك، لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل"(١).

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: "ومعنى قول الزهري أنه لما ذكر الحديث الأول خاف أن سامعه يتكل على ما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء، فضم إليه حديث الهرة الذي فيه من التخويف ضد ذلك، ليجتمع الخوف والرجاء"(٢).

بل إن رحمة البهيمة عند ذبحها من علامات الإيمان، فعن معاوية ابن قُرّة، عن أبيه: أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، آخُذُ الشَّاةَ فَأَذْبَحُهَا فَأَرْحَمُهَا. قَالَ: «وَالشَّاةُ فَإِنْ تَرْحَمْهَا يَرْحَمْكَ اللهُ» مرتين(٣).

ومثله حديث شَدّاد بن أوس رضي الله عنه، قال: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»(٤).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، برقم (٢٣٦٤) (١١٢/٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، برقم (٢٢٤٢)، (١٧٦٠/٤).
(٢) أصول الإيمان، ص (٥١).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم(٣٧٣)، ص (١٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٥٦)(٤١٣/١٣)، وقال الألباني: "صحيح".
(٤) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، برقم (١٩٥٥)، (١٥٤٨/٣).

وفي حديث أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وفي السياق ذاته عن عبدالله بن عمر: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ بِحَدِّ الشِّفَارِ، وَأَنْ يُوَارِي عَنِ الْبَهَائِمِ، وَإِذَا ذَبَحَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجْهِزْ»(٢).

وبهذا، فإن الأمة عرفت حقوق الإنسان والحيوان، وانضبط ذلك بضوابط الشرع، فالحيوان يرجو خيرًا من المؤمن، والنبات وكل شيء -كذلك-، وهذا هدي المؤمنين، من لدن نزول الوحي وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكان عدي بن حاتم ﷺ يَفُتُّ الخبز للنمل، ويقول: "إِنَّهُنَّ جَارَاتٌ، وَلَهُنَّ حَقٌّ"(٣)، وكان صالح بن كيسان يكسر لهرة له يطعمها، ثم يفت لحمامات له، أو لحمام له يطعمه (٤).

ومن كرائم هذا الباب وأروعه، ما قد يسطره مؤمن رحيم، جافت الشقاوة قلبه وروحه، فيقدم نداء رحمة قلبه على نداء جسده وحاجته لأمس مقومات حياته، فيطعم وهو في أمس الحاجة للطعام، ويسقي وهو في أمس الحاجة للسقاء، ويتعب وهو في أمس حاجة للراحة، ويا لها من رحمة وسعت عباد الله الرحماء، ولعل نفحة من هذه النفحات تصادف قبولًا من عند الله، فتكون سببًا في سعادة لا شقاء بعدها أبدًا.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، برقم (٧٩١٥) (٢٣٤/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٥٩) (٤١٥/١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رجاله ثقات"، وقال الألباني: "حسن". صحيح الجامع (١٠٧٤/٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، برقم (٣١٧٢) (١٠٥٩/٢)، وأحمد في المسند، برقم (٥٨٦٤) (١٠٥/١٠). قال الألباني: "صحيح السند". السلسلة الصحيحة (٣٥٧/٧).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٤٢١/١٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢١٩٠/٤). وذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات بصيغة الجزم، (٣٢٨/١).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٤٢١/١٣).

فعن عائشة ﵂، أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ»(١).

يقول أحمد بن صالح: "رأيت الخير كله في رقة القلب والرحمة، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ورأيت الشر كله في اثنتين: في الفظاظة، وغلظ القلب، وذلك قول الله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩])"(٢).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، برقم (٢٦٣٠)، (٤/٢٠٢٧).

(٢) أخرج الأثر البيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٠٥٤٧) (١٣/٤٠٧).

المبحث الثاني
آثار الرحمة
في زيادة الإيمان ونقصانه وتطبيقاتها
من الآثار الصحيحة

المطلب الأول
الإشارات النبوية
لزيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالرحمة

معنى الإيمان ثبت بدلالة الكتاب والسنة، وأنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف. وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه لا شرعًا، ولا حسًا، ولا واقعًا. فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه، والتحقق بها علمًا وعملًا، وحالًا.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة. ويداوي ما قصر من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته. فتحقيق الإيمان وتقويته، يكون بمعرفة أسباب زيادة الإيمان، والقيام بها. وأما السعي في دفع ما ينافيه ويضاده، فيكون بمعرفة أسباب نقصه والحذر من الوقوع فيها[1].

(١) ينظر: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص(٦٨)، وزيادة الإيمان ونقصانه، عبدالرزاق العباد، ص(١٦٦).

روي عن أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم: "أن الإيمان يزيد وينقص"[١]، وعن عُمَيْر بن حَبِيب الخَطْمِيّ رضي الله عنه قال: "الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه"[٢]. وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: "هلموا نَزْدَدْ إيمانًا، فيذكرون الله عز وجل"[٣]. ويروى عن علي رضي الله عنه: "إن الإيمان يبدو لُمْظَةً في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللُّمظَة"[٤]، اللُّمْظَة: مثل النُّكتة من البياض أو نحوها[٥].

قال مالك بن دينار: "الإيمان يبدو في القلب ضعيفًا ضئيلًا كالبَقْلَة، فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدَّغَل وما يضعفه ويُوهِنه، أوشك أن ينمو أو يزداد، ويصير له أصل وفروع، وثمرة وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عَنْزٌ فنتفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدَّغَل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها، كذلك الإيمان«. وقال خَيْثَمة بن عبدالرحمن: »الإيمان يَسْمَنُ في الخِصْب، ويَهْزِل في الْجَدْب،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن، باب في الإيمان، برقم (٧٤) (١/٢٨)، وقال الألباني: "ضعيف جدًا، لكن الآثار بهذا عن السلف مستفيضة في كتب السنة، وقد روي مرفوعا ولا يصح". ضعيف سنن ابن ماجه (١/١٤٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (٥٥) (١/١٥٤)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٠٣٢٧) (٦/١٦٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان، ص (٤١)، والآجري في الشريعة (٢/٥٨٤).

(٤) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٥/١٥٤)، وابن أبي شيبة في الإيمان، ص (١٩)، والخلال في السنة (٥/٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان ولفظه: قال علي رضي الله عنه: "إِنَّ الْإِيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً بَيْضَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْإِيمَانُ عِظَمًا ازْدَادَ ذَلِكَ الْبَيَاضُ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ ابْيَضَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِنَّ النِّفَاقَ يَبْدُو لُمْظَةً فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ النِّفَاقُ عِظَمًا ازْدَادَ ذَلِكَ سَوَادًا، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ النِّفَاقَ اسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُؤْمِنٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَبْيَضَ، وَلَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُنَافِقٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَسْوَدَ". قَالَ -يعني الراوي-: "وَاللُّمْظَةُ هِيَ الذَّوْقَةُ، وَهُوَ أَنْ يَلْمُظَ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ شَيْئًا يَسِيرًا: أَيْ يَتَذَوَّقَهُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ يَدْخُلُ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، ثُمَّ يَتَّسِعُ فِيهِ فَيَكْثُرُ". وقال المحقق: رجاله ثقات. (١/١١٤).

(٥) ينظر: الإيمان، ابن تيمية، ص (١٧٧)، ولسان العرب (٧/٤٦١)، مادة (لمظ).

فخِصْبُه العمل الصالح، وجَدْبُه الذنوب والمعاصي، وقيل لبعض السلف: يزداد الإيمان وينقص، قال: نعم، يزداد حتى يصير أمثال الجبال، وينقص حتى يصير أمثال الهباء"[1].

ولهذا، فإن أكمل المؤمنين إيمانًا أوسعهم رحمة، فالرسول ﷺ أعظم الناس إيمانًا، فكان أكثرهم رحمة، وأرفقهم بالخلق، ويليه من هذه الأمة صاحبه الصديق، فكان بشهادة الصادق له أنه أرحم الأمة بالأمة.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهَا حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَقْرَؤُهَا لِكِتَابِ اللهِ أُبَيٌّ، وَأَعْلَمُهَا بِالْفَرَائِضِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[2].

ولابن القيم كلام في غاية النفاسة، حيث يقول: »ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسوله ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. وكان الصديق رضي الله عنه من أرحم الأمة، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»، وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: "وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمنا به، يعني النبي ﷺ"[3]، فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء

(١) الإيمان، ص (١٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، في أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، برقم (٣٧٩٠) (٦/١٣٥)، وابن ماجه في السنن، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضائل زيد بن ثابت، برقم (١٥٤) (١/٥٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٢٩٠٤) (٢٠/٥٢٥)، والحاكم في المستدرك، رقم (٥٧٨٤) (٣/٤٧٧)، وقال: « هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: «صحيح». صحيح الجامع، ص (٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، برقم (٣٩٠٤) (٥/٥٦)، ومسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، برقم (٢٣٨٢) (٤/١٨٥٤).

رحمةً وعلمًا. فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه، والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها، وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قربه، وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم، والإنسان ظلوم جهول، فكم من مكرم لنفسه بزعمه، وهو لها مهين، ومرفه لها، وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التى هى مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه. فقد بخسها حظها، وأضاع حقها، وعطل مصالحها، وباع نعيمها الباقى، ولذتها الدائمة الكاملة، بلذة فانية مشوبة بالتنغيص، إنما هى كأضغاث أحلام، أو كطيف زار فى المنام، وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة. فلو هُدِيَ ورحم لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب ﷻ أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة. فهو الذي يؤتيها العبد. كما قال عن عبده الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:١٠]"[(١)].

وروى البزار عن أنس مرفوعًا: «أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ، وَقَسَاءُ الْقَلْبِ، وَطُولُ الأَمَلِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الدنيا»، «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَوْجَبَ الثَّوَابَ، وَاسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ: خُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ، وَوَرَعٌ يَحْجِزُهُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَحِلْمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الْجَاهِلِ»[(٢)]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالخصال الأولى تدل على زيادة الإيمان وقوته، والأربعة الأخر تدل على ضعفه ونقصانه"[(٣)].

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٧٣).
(٢) أخرجه البزار في المسند، برقم (٦٤٤٢، ٦٤٤٣) (٨٧/١٣).
(٣) الإيمان، ص (١٧٩).

المطلب الثاني

دراسة تحليلة تطبيقية لحديث النبي ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً»

الآثار الواردة فيها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رَأْسُ الكُفْرِ نَحْوَ المَشْرِقِ، وَالفَخْرُ وَالخُيَلاَءُ فِي أَهْلِ الخَيْلِ وَالإِبِلِ، وَالفَدَّادِينَ أَهْلِ الوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ»[1].

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو أَبِي مَسْعُود رضي الله عنه، قَالَ: أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ نَحْوَ اليَمَنِ فَقَالَ: «الإِيمَانُ يَمَانٍ هَا هُنَا، أَلاَ إِنَّ القَسْوَةَ وَغِلَظَ القُلُوبِ فِي الفَدَّادِينَ، عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ، حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ فِي رَبِيعَةَ، وَمُضَرَ»[2].

وفي رواية عنه عند البخاري، قَالَ: «الإِيمَانُ هَا هُنَا. وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى اليَمَنِ، وَالجَفَاءُ وَغِلَظُ القُلُوبِ فِي الفَدَّادِينَ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ رَبِيعَةَ، وَمُضَرَ».

وفي رواية أخرى، قَالَ: «مِنْ هَا هُنَا جَاءَتِ الفِتَنُ، نَحْوَ المَشْرِقِ، وَالجَفَاءُ وَغِلَظُ القُلُوبِ فِي الفَدَّادِينَ أَهْلِ الوَبَرِ، عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ وَالبَقَرِ، فِي رَبِيعَةَ، وَمُضَرَ»[3].

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، برقم (٣٣١٠)(١٢٧/٤)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (٨٥) (٧٢/١).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، برقم (٣٣١٠) (١٢٧/٤)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (٨٥) (٧٢/١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المناقب، باب (دون أن يسميه)، برقم (٣٤٩٩، ٣٤٩٨) (١٧٣/٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، أَضْعَفُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً، الفِقْهُ يَمَانٍ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ». وفي لفظ مسلم: «جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ»[1].

وفي رواية أخرى عنده: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَضْعَفُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً، الْفِقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ».

وفي أخرى عنده -أيضًا- : «الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْكُفْرُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالرِّيَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْخَيْلِ وَالْوَبَرِ».

وفي أخرى: «جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَضْعَفُ قُلُوبًا، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ، أَهْلِ الْوَبَرِ، قِبَلَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ».

وفي أخرى: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، رَأْسُ الْكُفْرِ قِبَلَ الْمَشْرِقِ».

وفي أخرى: «وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَصْحَابِ الشَّاءِ». وكل هذه روايات لحديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي حديث جابر ﷺ: «غِلَظُ الْقُلُوبِ، وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ، وَالْإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ»[2].

فهذه جملة من الروايات لحديث النبي ﷺ جمعتها لتأملها وتحليلها،

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، برقم (٤٣٨٨) (١٧٣/٥)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (٨٢) (٧١/١).

(٢) أخرجها مسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، بأرقام(٨١ - ٩٢).

للوقوف على مسألة البحث، وهو جانب تطبيقي بعد أن أصلنا للجانب النظري، ولعل الإمام مسلمًا بحسه العالي، وفقهه الراقي، تنبه لمنزلة رحمة أهل الإيمان، وتفاضلهم فيه، فبوب بابًا في صحيحه في تفاضل أهل الإيمان فيه[1]، وجاء فيه بأحاديث أبي مسعود وأبي هريرة وجابر رضي الله عنهم، بما يعني أن هذه الأحاديث تتفق جميعًا في وضع مقياس دقيق، وميزان حساس للإيمان، وليس هو من عمل ظاهر من أعمال الجوارح من صلاة أو صوم أو ذكر، بل هو شيء يلامس شغاف القلب، ويخالط مهجته، عبر عنه ببعض أظهر مظاهره، وهي قسوة الطبع، وغلظ القلب، وهي مظاهر ملموسة لمن ضعف الإيمان في قلبه، وهذا ما يجعلنا نجزم بتلازم الإيمان مع رحمة القلب، ورقة الفؤاد، فالإيمان متأصل بمنطوق الوحي في أهل الرقة، وأصحاب الرأفة، ومنتفي بمفهومه عن أصحاب الغلظة، وأدعياء القسوة.

وهذه الروايات المباركات، جاءت ببيان مسألة بحثنا، بيانًا شافيًا؛ ولهذا أتيت بها على اختلاف ألفاظها، فبعضها أقرب من بعض في بيان شاهد للبحث؛ وقد استوقفتني كثيرًا؛ لما لها من كبير وقع على أهل الإيمان، وبالغ أثر على نفسي، فكم كنت أتأمل فيها، ولكن دون تؤدة، أما وهي من صميم البحث، فإني أستعين الله على حسن فهمها، وبيان مرادها ولطائفها، ولبيان ذلك أفصّل القول إلى مسائل:

المسألة الأولى:

شهادة النبي ﷺ بالإيمان لأهل اليمن[2]: فهذه شهادة عظيمة لمن

(١) حتى وإن كانت تبويبات الصحيح ليست من صنيع الإمام نفسه، إلا أنه لا يبعد أبدًا أن يكون هذا مراده، خصوصًا إذا أتت هذه التبويبات الرائقة، والعناوين الفائقة من جهبذ نحرير بالفقه والحديث كالإمام النووي، فهي نور على نور.

(٢) اختلف في مفهوم أهل اليمن هنا، هل هم أهل اليمن، ممن سكن اليمن، أو هم الأنصار، أو هم أهل الحجاز من أهل مكة والمدينة. ينظر: فتح الباري (٨/٩٩)، وشرح النووي على مسلم (٢/٣٢).

يستحقها، فالنبي ﷺ أعطى وسامًا غاليًا، بل لعله أغلى وسام يمنح لمخلوق، ألا وهو الإيمان، ولن أتوقف عند معاني الإيمان، بل سأقف على أهم مظاهره عند هؤلاء، فروايات الحديث الشريف نصت على سر هذه الشهادة العظيمة، بل أوضحت بما لا يدع مجالًا للشك، أن سبب هذه الشهادة هو: لين قلوبهم، ورقة أفئدتهم، وهذا ما يفسر رواية: (وَأَضْعَفُ قُلُوبًا)، فهم قوم رقيقة قلوبهم، لينة أفئدتهم، بما يجعلها ضعيفة قريبة لقبول الحق، ومحبة رحيمة لأهله، لا يصدر عنها إلا ما يتفق والرحمة والشفقة، والضعف لكل ما يُحب، والنفرة من كل ما يُبغض ويُستهجن ويُستقبح، قال الحافظ ابن حجر: "ومعنى الحديث وصف الذين جاؤوا بقوة الإيمان وكماله، ولا مفهوم له"[1]، وقال النووي: "إنه ﷺ وصفهم بما يقضي بكمال إيمانهم، ورتب عليه الإيمان يمان، فكان ذلك إشارة للإيمان إلى من أتاه من أهل اليمن، لا إلى مكة والمدينة، ولا مانع من إجراء الكلام على ظاهره، وحمله على أهل اليمن حقيقة؛ لأن من اتصف بشيء، وقوي قيامه به، وتأكد اطلاعه منه، ينسب ذلك الشيء إليه، إشعارًا بتميزه به، وكمال حاله فيه، وهكذا كان حال أهل اليمن حينئذ، في الإيمان وحال الوافدين منه في حياة رسول الله ﷺ، وفي أعقاب موته كأويس القرني، وأبي مسلم الخولاني، وشبههما ممن سلم قلبه، وقوي إيمانه فكانت نسبة الإيمان إليهم لذلك؛ إشعارًا بكمال إيمانهم من غير أن يكون في ذلك نفي له عن غيرهم، فلا منافاة بينه وبين قوله ﷺ: «الإيمان في أهل الحجاز»، ثم المراد بذلك الموجودون منهم حينئذ، لا كل أهل اليمن في كل زمان، فإن اللفظ لا يقتضيه، هذا هو الحق في ذلك، ونشكر الله ﷻ على هدايتنا له، والله أعلم"[2].

(١) فتح الباري (٨/٩٩).
(٢) شرح النووي على مسلم (٢/٣٣).

ويا لها من لفتة كريمة، ونفيسة غالية، تلك التي علمنا إياها المعصوم ﷺ، عندما أخبر بمقدمهم عليه، أرشد إلى وصفهم، وعرّف بهم بما ينعتهم، فقال: «أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، أَضْعَفُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً»، فبين وأرشد لأهم ما بلغهم تلك المنزلة العظيمة من الإيمان، وأنها سبب استجابتهم وخشيتهم واستكانتهم، قال الحافظ ابن حجر: «وسبب الثناء على أهل اليمن إسراعهم إلى الإيمان»[1]، ويقول الإمام النووي: «وأما وصفها باللين والرفة والضعف، فمعناه أنها ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة، التي وصف بها قلوب الآخرين»[2].

وهو إرشاد للمسلمين بلازم الوصف، وتحبيب لأهل الملة بكمال الخصال، التي فيها الرحمة والرقة والضعف، وهو تلازم وثيق، ومقصد من مقاصد الشريعة عميق، فمن عظم منه اللين والرحمة وجعلها في محلها المشروع، وبضوابطها المشروعة، عظم الإيمان في قلبه، فما رحمته ورأفته إلا لإيمانه بربه، وما إيمانه بربه إلا للين قلبه، ورقة طبعه ورحمته.

قال العيني: "قوله: (أضعف قلوبًا) ذكر فيما مضى ألين قلوبًا؛ لأن الضعف عبارة عن السلامة من الغلظ والشدة والقسوة، التي وصفت بها قلوب الآخرين، واللين عبارة عن الاستكانة، وسرعة الإيجاب، والتأثر بقوارع التذكير"[3]، ويقول الحافظ ابن حجر: "وقوله: (أرق أفئدة)، أي إن غشاء قلب أحدهم رقيق، وإذا رق الغشاء أسرع نفوذ الشيء إلى ما وراءه"، وقال -أيضًا-: "قال الخطابي: قوله: (هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا)؛ أي لأن الفؤاد غشاء القلب، فإذا رق نفذ القول، وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ بعد

(١) فتح الباري (٦/٣٥٢).
(٢) شرح النووي على مسلم (٢/٣٤).
(٣) عمدة القاري (١٨/٣٢).

وصوله إلى داخل، وإذا كان القلب لينًا علق كل ما يصادفه"، وقال العيني -كذلك-: "فإذا صادف القلب شيئًا علق به، أي: إذا كان لينًا"[1].

بل إنَّ ذلك انعكس على سلامة فطرهم، ونقاوة فهمهم، وصفاء قلوبهم، ففاضت بالحكمة، ونبعت بالخير، فصدقت لهجاتهم، ونبلت طباعهم، حتى نضحت الحكمة، فكل إناء بما فيه ينضح، وإذا أُشربت الفقه والعلم، وجدت قلوبًا خصبة، ونفوسًا زكية، وأرضًا متعطشة، فأورثت فهمًا عميقًا، وعلمًا دقيقًا، فسادت بين الأقران، وارتفعت بين الأصحاب والخلان. وهي ثمرة عظيمة من ثمار رحمة القلوب، ورقة الأفئدة، نسأل الله من فضله العميم.

المسألة الثانية:

شهادة النبي ﷺ بالكفر على أهل المشرق أهل الغلظة والجفاء: وهي شهادة عظيمة - أيضًا -، قال ﷺ: «الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْكُفْرُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ»، وقال: «مِنْ هَا هُنَا جَاءَتِ الفِتَنُ، نَحْوَ المَشْرِقِ»، وقال في حديث جابر رضي الله عنه: «غِلَظُ الْقُلُوبِ، وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ، وَالْإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ»، وعبر بالمقابلة لبيان حال الكفر وأهله، بعد أن بين حال الإيمان وأهله، فأهل الإيمان أهل رقة ورأفة ورحمة، وأهل الكفر على النقيض، فهم أهل غلظة وجفوة وقسوة، فالجفاء في الطبع، أثر على استجابتها للحق، واستكانتها لأمر الرب سبحانه وتعالى، فقست قلوبهم، وعميت أبصارهم، وتكبرت على استجابتها، لما يصلحها من أمر الرسل عليهم السلام، فكل أهل الكفر والعصيان، غلاظ قلوبهم، شديد بأسهم، أنفت طباعهم عن ضعفها وانكسارها لمولاها، ورحمة خلقه من ضعفائهم، فكتب الله عليهم الشقاء بشقاوتهم وغلظتهم.

قال الحافظ أبو عمر ابن عبدالبر: "أما قوله ﷺ: «رأس الكفر نحو

(١) فتح الباري، لابن رجب الحنبلي (٣٥٢/٦)، وفتح الباري، لابن حجر (١٠٠/٨)، وعمدة القاري (٣٢/١٨).

المشرق»، فمعناه أن كفر أهل المشرق، وهم ذلك الوقت فارس وما وراءهم من العجم، وكلهم لا كتاب له ولا شريعة، ومن كان كذلك فكفره أشد الكفر؛ لأنه لا يقر بنبي ولا برسول، ولا كتاب له ولا شريعة، ولا يدين بدين يرضاه الله ﷻ"[1]. وقال -أيضًا-: "أما قوله: رأس الكفر نحو المشرق فهو أن أكثر الكفر وأكبره كان هناك"[2]. وهذا أسلوب منفر من حالهم، مرغب في البعد عن أوصاف الغلظة والجفاء، فالكفر والغلظة مقترنان.

المسألة الثالثة:

الإيمان وأهل الغنم: ومن أخص مسائل الباب وأدقها مسألة الإيمان وعلاقته بأهل الغنم خاصة، وما يمتهنه الإنسان عامة، أو ما يحيط به من بيئته، فهل لهذا أثر على الإيمان؟ يأتي الجواب منه ﷺ فيقول في الحديث: «السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ، أَهْلِ الْوَبَرِ، قِبَلَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ»، ويقول: «وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَصْحَابِ الشَّاءِ».

فأهل الإيمان أهل سكينة ووقار، وهكذا أهل الغنم على ما يتعلمونه من صبر وتؤدة وتواضع ورقة، يقول الحافظ ابن حجر: "قوله: (السكينة في أهل الغنم) أي الوقار أو الرحمة أو الطمأنينة، مأخوذ من سكون القلب"، وقال -أيضًا-: "والسكينة تطلق على الطمأنينة والسكون والوقار والتواضع"[3].

وعلى العكس تمامًا في أهل الوبر، ففيهم من الخيلاء والكبر والفخر ما يجعلهم قساة أجلافًا، يقول النووي: "وأما قوله ﷺ: (الفخر والخيلاء)، فالفخر هو الافتخار، وعد المآثر القديمة تعظيمًا، والخيلاء الكبر واحتقار

(١) الاستذكار (٨/٤٩٩).
(٢) التمهيد (١٨/١٤٢).
(٣) فتح الباري (١/١٣٣)، (٦/٣٥٢).

الناس، وأما قوله: (في أهل الخيل والإبل الفدادين أهل الوبر)، فالوبر وإن كان من الإبل دون الخيل، فلا يمتنع أن يكون قد وصفهم بكونهم جامعين بين الخيل والإبل والوبر، وأما قوله ﷺ: «والسكينة فى أهل الغنم»، فالسكينة: الطمأنينة، والسكون على خلاف ما ذكره من صفة الفدادين"[1].

ويقول ابن حجر: "وقال أبو العباس: الفدادون هم الرعاة والجمالون، وقال الخطابي: إنما ذم هؤلاء لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم، وذلك يفضي إلى قساوة القلب، قوله: (أهل الوبر) بفتح الواو والموحدة، أي ليسوا من أهل المدر؛ لأن العرب تعبر عن أهل الحضر بأهل المدر، وعن أهل البادية بأهل الوبر، واستشكل بعضهم ذكر الوبر بعد ذكر الخيل، وقال: إن الخيل لا وبر لها، ولا إشكال فيه؛ لأن المراد ما بينته"[2].

ومن هنا فإن الله هيأ أنبياءه للرسالة، ووطأهم للدعوة إليها، فقدر لهم بحكمته رعي الغنم، ومخالطة الشاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»[3]. قال الحافظ ابن حجر: "قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها ورفقوا

(١) شرح النووي على مسلم (٣٤/٢).
(٢) فتح الباري (٣٥٢/٦).
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، برقم (٢٢٦٢) (٨٨/٣).

بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم؛ وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها؛ ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادًا من غيرها، وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء"[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: افْتَخَرَ أَهْلُ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَهْلِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بُعِثَ مُوسَى عليه السلام وَهُوَ يَرْعَى غَنَمًا عَلَى أَهْلِهِ، وَبُعِثْتُ أَنَا وَأَنَا أَرْعَى غَنَمًا لِأَهْلِي بِجِيَادٍ»[2].

قال الحافظ أبو عمر ابن عبدالبر: "وأما أهل الخيل والإبل فهم الأعراب أهل الصحراء، وفيهم التكبر والتجبر والخيلاء، وهي الإعجاب والفخر والتبختر، وأما أهل الغنم فهم أهل سكينة وقلة أذى، وقلة فخر وخيلاء، على ما قال النبي ﷺ فهو الصادق في خبره ﷺ، وأما قوله: الفدادين فكان مالك يقول: الفدادون هم أهل الجفاء، وهم أهل الخيل والوبر، يريد بالوبر الإبل، وهو كما قال مالك، قال أبو عبيد: هم الفدادون بالتشديد، وهم الرجال، والواحد فداد، وقال الأصمعي: هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم وما يعالجون منها"[3].

ويقول ابن بطال: "خص الغنم من بين سائر الأشياء حضًّا على

(١) فتح الباري (٤/٤٤١).
(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (١١٩١٨) (١٨/٤٠٩). وصححه الشيخ الألباني. السلسلة الصحيحة (٧/٥٠٠).
(٣) التمهيد (١٨/١٤٣).

التواضع، وتنبيهًا على إيثار الخمول وترك الاستعلاء والظهور، وقد رعاها الأنبياء والصالحون، وقال ﷺ: «ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم»، وأخبر أن السكينة فى أهل الغنم"[1].

وقال الباجي: "وقوله ﷺ: «والسكينة في أهل الغنم»، يحتمل -والله أعلم- أن يكون ذلك على وجه التعرف بهم، ويحتمل أن يكون ذلك سبب سكينتهم لضعفها، وقلة استعانة أهلها بها في محاربة عدو ومناوأته، فرغبوا في المسالمة، وتخلقوا بالسكينة والوقار، والكف عن الأذى"[2].

ولهذا جعل الله ﷻ البركة والنماء في الغنم، والسكينة والوقار في أهلها، فهم أهل طمأنينة بالإيمان، ووقار ورفعة وتواضع بصفاته، ومن ذلك الحديث: «الْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا، وَالْغَنَمُ بَرَكَةٌ، وَالْخَيْرُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[3].

المسألة الرابعة:

الإيمان وعلاقته برقة القلب: بعد التطواف مع ألفاظ الحديث وحِكمه وأحكامه، لابد من تمعيك الذهن، وتمحيض النظر، وتمحيص القول، لمسألة الحديث الأصيلة، وهي سبب اختياري لهذا الحديث العظيم، والإطالة في سرد رواياته وطرقه، وتأمل أقوال العلماء والشرّاح، لعلي أظفر بضالتي، وإذ بها في مرمى سهمي، سهلة المنال، غضة طرية، فسبب ورود الحديث يفتح بابها، ويمهد طريقها؛ إذ جاء وصف صنف من المؤمنين، بأخص خصالهم، مادحًا لها، معظمًا لشأنها، حاثًّا على لزومها، والاهتداء بها.

فالنبي الكريم ﷺ جلّى أوصاف أهل اليمن عند مقدمهم عليه، فهم

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال (١/٧١).
(٢) المنتقى شرح الموطأ (٧/٢٩٠).
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب التجارات، باب اتخاذ الماشية، برقم (٢٣٠٥) (٢/٧٧٣)، عن عروة البارقي. وصححه الشيخ الألباني. صحيح الجامع الصغير (١/٥٣٥).

أهل إيمان وفقه وحكمة، يشتركون في شيء واحد، وهو القاسم المشترك الذي تبوؤا به هذه المكانة العلية، وهو الرحمة العظيمة، التي حوت قلوبهم، فنبلت بها طباعهم، ورقت لها أفئدتهم، وهذا بيت قصيدنا، فعظم الرحمة في قلوبهم، هو ما جعلهم يتميزون بالرقة واللين، وجاء الوحي من السماء بتصديق هذا وبيان فضله، وإثبات درجة عالية من الإيمان والفقه والحكمة، ولا شك أن رأفة قلوبهم تجعل منهم محطًّا لشفقتهم بالخلق، ورحمتهم بالعباد، وهكذا تتحقق فيهم سبل الهداية من ناحية علاقتهم بالخالق وهي الأصل، وعلاقتهم بالمخلوق وهي فرع عنها، فكان الأصل وفرعه منبثقًا عَمَّ وقر في القلب من الرحمة، بل يعظم ثبوت الإيمان بالله ﷻ بقدر ما يقر في القلب من الرحمة والرأفة.

هذا أولًا -أعني من حيث سبب ورود الحديث-، أما من جهة أخرى: فإنه ﷺ فرق بين أهل الإيمان والكفر، فحدد أقوامًا بعينهم من هؤلاء وهؤلاء، ولكن البحث يتجه تجاه الأوصاف لكل منهما، فوصف أهل الإيمان بما يقتضي الرحمة والرأفة، فهم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، فكل أفعالهم وأقوالهم تصدر عن رحمة ورأفة، إذا عرض عليهم أمر الله أخذوه بجانب الاستكانة والاستجابة، وإذا عرضت عليهم مصالح الخلق وأحوالهم صدرت تصرفاتهم بالرحمة والرأفة، فإذا رأوا يتيمًا مسحوا على رأسه، وإذا رأوا أرملة أو مسكينًا جبروا كسره، وسدوا عِوَزَه، خَمَّمَ الله قلوبهم، وكساها بالرحمة والشفقة، وحرم عليها الغل والحقد والحسد، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ»، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»[1].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، برقم (٤٢١٦) (٢/١٤٠٩). وصححه

وإذا تشربت القلوب غلظة وقسوة صدرت الأفعال والأقوال بما يوجب النفرة من الحق، والجفوة للخلق، بل إن ذلك سبب للطغيان والكبر والغطرسة المفضية للتنكّل للحق، والفظاظة مع الخلق، كما في حديث حارثة بن وَهْب الخُزَاعِيِّ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ». وفي رواية لمسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ جَوَّاظٍ زَنِيمٍ مُتَكَبِّرٍ»(١). وفي رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عند أحمد: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ الْمَغْلُوبُونَ»(٢)، يقول النووي: "(كل ضعيف متضعف) ضبطوا قوله (متضعف) بفتح العين وكسرها المشهور الفتح، ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه؛ لضعف حاله في الدنيا، يقال: تضعفه واستضعفه، وأما رواية الكسر، فمعناها: متواضع متذلل خامل، واضع من نفسه، قال القاضي: وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان، والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء، كما أن معظم أهل النار القسم الآخر، وليس المراد الاستيعاب في الطرفين"(٣).

وقال النووي -أيضًا-: "قوله ﷺ في أهل النار: (كل عتل جواظ مستكبر)، وفي رواية (كل جواظ زنيم متكبر)، أما العتل بضم العين والتاء، فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي: الفظ الغليظ،

الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة (٦٣٢/٢).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب تفسير القرآن، باب: عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (القلم: ١٣)، برقم(٤٣٨٨)(١٥٩/٦)، ومسلم في الصحيح كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم(٢٨٥٣)(٢١٩٠/٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (٧٠١٠)(٥٨٥/١١). وصححه الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة (٣٢١/٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٨٦/١٧).

وأما الجواظ بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة، فهو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم، المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين، وقيل: الفاخر بالخاء، وأما الزنيم، فهو الدعي في النسب، الملصق بالقوم وليس منهم، شبِّه بزنمة الشاة، وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكبر، وهو: بطر الحق وغمط الناس"[1].

ومن ناحية أخرى فإن مهنة الإنسان تتطبع بداخله، فتؤثر في طبعه، فأهل الحضر، ومن يعملون برعي الغنم، يكتسبون رقة في الطبع، ولين في الانفعالات، وسرعة في الاستجابة للحق، ومحبة أهله، وأهل البدو ورعي الإبل فيهم من طبعها، من الجفاء والغلظة، فهم أهل قسوة وغلظة، وأبعد عن السكينة والوقار، أقرب من الكبر والأنفة والاستعلاء، وقَمِنٌ بقوم هذا وصفهم الاعتراض على الأوامر، والتنكل للزواجر، وهذا هو قوله ﷺ: «وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَصْحَابِ الشَّاءِ».

وعلى هذا فإن علاقة الإيمان بالرحمة علاقة طردية، بمعنى أن الرحمة إذا ملئت القلب انعكس على إيمانه إيجابًا، وهذا بأعلى المنازل، وإذا ما نزعت الرحمة من قلب فإن الإيمان ينزع عنه - كذلك -، وهذا بأوضع المنازل وأشقاها، وأحطها وأدناها، وهو مشاهد لمن وفقه الله ﷻ، أسأل الله بأسمائه وصفاته أن يوفقنا لرضاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) المرجع نفسه (١٨٧/١٧).

الخاتمة

أهم النتائج:

- رسالة الله رحمة للعالمين، وأرحم عباد الله بعباد الله هم رسل الله عليهم السلام.
- الصحابة رضي الله عنهم حملوا لواء الرسالة، فأكسبهم الله حظًّا عظيمًا من صفاتها، فكانوا أرحم عباد الله بعد رسل الله عليهم السلام.
- يتلازم الإيمان والرحمة تلازمًا حقيقيًّا، مثلت السنة النبوية الشريفة ذلك بيانًا شافيًا.
- زيادة الإيمان ونقصانه عقيدة من عقائد المسلمين الصحيحة، دلت السنة النبوية المطهرة على ارتباطها برحمة القلب.
- غلظة الطبع، وقسوة القلب، من صفات أهل الكفر والزيغ، ورقة الطبع، ورأفة القلب من صفات أهل الإيمان.
- العاقبة العظمى في الدنيا للرحماء، وفي الآخرة للرحماء، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء.
- ما نزل خير، ولا عمَّ فضل، إلا بالرحمة.
- الرحمة رسالة الله سبحانه وتعالى للأولين والآخرين.

أهم التوصيات:

- الدعوة للتفكر في نصوص السنة النبوية المطهرة، والتأمل في معانيها، وفتح المجال للبحث العلمي المنهج.
- فتح المجال لبحوث السنة التحليلية، وتشجيع الباحثين لِطَرْق مواضيعها.
- التركيز على الجانب الإعلامي، وإبراز محاسن السنة النبوية المطهرة في مجالاتها المختلفة.
- الدفاع عن دور الإسلام في إصلاح البشرية، وإشغال العامة بمثل هذه المواضيع الهادفة.
- مضاعفة جهود المؤسسات الدعوية والعلمية، والصروح العلمية كالجامعات، وكلياتها المتخصصة في علوم الشريعة في إبراز رسالة الإسلام بسماحته ورحمته.
- جانب الرحمة من أكثر ما يستعمله الغرب لإبراز محاسن حضارته ونهضته، وهو في الحقيقة غشاء رقيق تتكشف عورته أمام نور الإسلام الساطع، فعلى أهله مهمة بالغة الأهمية، غاية في النبل، وهي إبراز أصالة ديننا الحنيف في الرحمة بالعالمين، فأصل رسالة نبينا ﷺ الرحمة للعالمين أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

١. الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
٢. أصول الإيمان، محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي (ت ١٢٠٦هـ)، تحقيق: باسم فيصل الجوابرة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ.
٣. الإيمان، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٤. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي(ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
٥. زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، الناشر: مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٦. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبدالعلي عبدالحميد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
٧. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي،

تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبدالرحمن بن رجب السَّلامي، البغدادي (ت ٧٩٥هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

١١. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.